مقارنة بين بعض أنظمة الحكم "الديمقراطية" القديمة

السيد عبدالكريم عبدالله

قسم الآثار

اريد بهذا البحث الموجز الاشارة الى واحد من الامثلة الكثيرة التي تدل على السبق التاريخي في الحضارة الانسانية الناضجة لبلاد الشرق القديم وخاصة بلاد وادي الرافدين والنيل ، بالنسبة الى الحضارة التي قامت في بلاد اليونان (شبه جزيرة البلقان) وبلاد الرومان (ايطاليا) والتي يعدها معظم المؤرخين الاوربيين الاساس الاول الذي قامت عليه المدنية الحديثة في الوقت الذي يغفلون فيه الاصل الذي قامت عليه تلك الحضارة الاغريقية الرومانية • ان الدراسات التاريخية الحديثة والاكتشافات الأثارية اثبتت ان الحضارة الانسانية الناضجة كانت قد بدأت في بلاد وادي الرافدين والنيل وانتقلت منها الى أقطار العالم القديم (وخاصة في مناطق غربي آسية وشمالي افريقية واوربة) وبضمنها بلاد اليونان والرومان التي قامت فيهما حضارة ناضجة على اسس تلك الحضارة الشرقية •

ان ما أخذه الاغريق من حضارتنا القديمة كثير ويشتمل على العلوم والفنون والآداب المختلفة من ذلك مثلا : نظام الموازين والمكاييل ووحدات الوزن والعملة وعلوم الفلك وقواعده وحساباته والنظام الستيني وعلوم الرياضيات • وفي الادب انتقلت بعض الاساطير القديمة وخاصة اسطورة

(*) لانقصد بهذه الكلمة هنا معناها السياسي الواسع المستخدم في الوقت الحاضر ، بل ما تتضمنه من معاني المناقشة في الرأى والتشاور في شؤون الادارة والحكم ما بين المجتمع والسلطة الحاكمة فيه •

عشتار وتموز التي ظهرت في قصة افروديت وادونيس[1] . وفي الفنون تأثر المثالون الاغريق بالتماثيل المصرية والآشورية والفنيقية[2] . وهناك أمثلة كثيرة اخرى لا مجال لتعدادها ، ولكن اود ان اشير الى أهم عامل من عوامل قيام الحضارة الناضجة الا وهو اختراع الحروف الابجدية للكتابة ، فقد أخذ الاغريق ابجديتهم الاولى من الحروف العربية القديمة بوساطة الفنيقيين حيث انتقلت اليهم في حدود القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد ذكرت الاساطير الاغريقية ان شخصا فينيقيا اسمه قادم (Cadmus)[3] هو الذي ادخل الابجدية العربية القديمة الى اليونان ، ولعل اول من اخترع الابجدية العربية : أي الالفباء هم المعينيون[4] الذين كونوا دولتهم في جنوبي الجزيرة العربية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد تقريبا . وكانت أشكال حروف الابجدية المعينية على الارجح قد تفرعت قديما من الفباء عرب سيناء التي تعد حلقة الوصل بين الابجدية

---

(١) هذا الاسم (ادونيس) ربما هو في الاصل الاله الاشوري المشهور أدد (هدد / حدد / آدو) اله البرق والرعد والمطر الذى عرف عند الكنعانيين والفنيقيين باسم (البعل) الذى معناه الزوج والسيد وهو بذلك يعني اله الحياة والخصب والخضرة وهذه تتفق مع صفات الاله تموز السومري، او هو تموز (سبتينو موسكاتي ـ الحضارات السامية القديمة ـ ترجمة د. سيد يعقوب بكر ص ٢٥٩ ، ٢٧٣) . وفي الازمان المتأخرة تحول (البعل) الى لقب (أدوني) : (انيس فريحة / ملاحم واساطير من اوغاريت ص ٥٠) . ومعناه سيدى ، وهذا اللقب يدل على شدة الخشوع والتحبب وقد اضاف الاغريق الى آخر الاسم الحرف (س) فاصبح ادونيس) .

(٢) ول ديورانت / قصة الحضارة / ترجمة محمد بدران ـ الطبعة الثانية (١٩٥٩) ج ١ م ٢ (٦) ص ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٣) رالف لنتون / شجرة الحضارة / ترجمة الدكتور احمد فخرى ج٢ ص ٢٨٢ .

(٤) الدكتور صالح احمد العلي / محاضرات في تاريخ العرب ص ١٨ .

الفينيقية وسابقتها المصرية[٥] . وقد أخذ الاتروسكان[٦] (Etruscans) عن الاغريق تلك الابجدية ومنهم جاءت الحروف اللاتينية التي أصبحت حروف الكتابة عند معظم الدو لالاوربية منذ القرون الوسطى[٧] . ومما يدل على ان حروف الكتابة الاغريقية ترجع الى أصل عربي ، ان الحروف الثلاثة الاولى من الالفباء الاغريقية تسمى بأسماء عربية (سامية) هي : (الفا ، بيتا ، جما) المشتقة من (الف ، بيت ، جيمل) الفنيقية[٨] التي هي : (أ ، ب ، ج) العربية . وبالاضافة الى ان بلادنا كانت مركزا للاشعاع الحضاري في العصور القديمة فانها كانت كذلك في عصور ازدهار حضارتنا العربية الاسلامية التي يعد انتقالها الى اوربة من أهم العوامل في قيام النهضة الحضارية الحديثة فيها .

ان الادلة في السبق الحضاري لبلادنا في العصور القديمة بالنسبة الى الاغريق أو الرومان كثيرة جدا ولا مجال لشرحها الآن[٩] . والبحث

---

(٥) ان ماكشف في سيناء يعد اقدم نموذج للكتابة الابجدية ، فقد عثر في ناحية (سرابية الخادم) على رقم يعود تاريخها الى عام ١٨٥٠ ق.م تقريبا، وهي محفوظة الآن في متحف القاهرة . وبعد مرور فترة من الزمن على نشوء ابجدية سيناء انتقلت الى شمالي سورية واستخدم الخط المسمارى في كتابتها كما تدل على ذلك الرقم المكتشفة في اوغاريت (رأس الشمرة) والتي يرجع تاريخ تدوينها الى اواخر القرن الخامس عشر ق.م (عن ذلك انظر : فليب حتى / تاريخ العرب المطول ج١ ص ٩٣،٩٢،٦٧ ـ الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ، وانيس فريحة / ملاحم واساطير من اوغاريت ص ٢٥ وما بعدها) .

(٦) الاتروسكان : قبائل جاءت من اسيا الصغرى واستقرت في شمال غربى ايطالية خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد وكانوا يمثلون آخر هجرة من هجرات شعوب البحر .

(٧) الدكتور احمد فخرى /دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١١٨.

(٨) جورج سارتون / تاريخ العلم / ترجمة ابراهيم مدكور واخرون ج ١ ص ٢٧٩ (٣٠) .

(٩) اشرت الى احد هذه الادلة في مقال نشر في مجلة كلية الشريعة (العدد الثالث ـ ١٩٦٧) تحت عنوان : « مقارنة بين عقد القرض الحديث وعقد القرض البابلي القديم » .

الذي نحن بصدده أحد الامثلة على ذلك السبق الحضاري ،بل لعل المفاهيم الاولى للديمقراطية (الشورى) بأفكارها المستندة الى التشاور وابداء الرأي في تلك العصور القديمة كانت قد انتقلت من بلاد وادي الرافدين الى بلاد اليونان حيث نمت وتطورت الى نوع من الديموقراطية الناضجة •

اضافة الى ذلك فان نظرة التقديس والاحترام التي اسبغها سكان العراق القديم على بعض المفاهيم والقيم الاجتماعية كالتأكيد على العدل والحق والاستقامة في الحكم وفي اصدار القرارات تعكس بلا شك مستوى الفكر الانساني الذي كانوا قد بلغوه ، وقد توج المجتمع ذلك بقوانين وشرائع (مثل قانون اورنمو وقانون اشنونا وقانون لبت عشتار ثم قانون حمورابي المشهور) كانت رمزا واضحا لذلك العدل الذي أرادوه أن يسود المجتمع ويتمتع به الجميع • ولعل ذلك كان في مضمونه ومحتواه يفوق مفاهيم الديمقراطية الاغريقية الاولى التي اقتصر تطبيقها على فئات معينة من المجتمع امتازت بنفوذها الاقتصادي ومركزها الاجتماعي كما سنرى ذلك خلال البحث •

العدل ، الشورى ، الديمقراطية •• اصولها اللغوية ومعناها :

الديمقراطية (Democracy) بمفهومها السياسي تعني حكم الشعب لنفسه بنفسه وهي من الناحية اللغوية مشتقة في الاصل من الكلمة الاغريقية[١٠] (Demokratia) المتكونة من Demas (= الشعب) و Cratas (= الحكم) • وقد جاءتنا هذه التسمية من اوربة واشعنا استعمالها بيننا وما نزال نشيع نتيجة للتقليد الذي نسير عليه • فقد أخذناها من اوربة لاننا نعتقد ان المفهوم الاول للديمقراطية كان قد نشأ أول مرة

---

(١٠) انظر :
Encyclopaedia Britannica, vol. 7,p. 215

في العالم في الاقطار الاوربية • وخاصة عند الاغريق والرومان كما يدل على ذلك الاصل الاغريقي للكلمة ، في حين ان النبتة الاولى لهذا النوع من نظام الحكم لم تكن قد ظهرت في بلاد اليونان و الرومان ، بل في بلاد وادي الرافدين التي نشأت فيها اولى الانظمة الادارية والسياسية في العالم حيث تطورت تلك الانظمة الى نوع من الديمقراطية في حدود الالف الثالثة قبل الميلاد • وقبل البحث في ذلك النوع من الحكم نشير هنا الى بعض الكلمات أو المصطلحات التي كانت لها أهميتها في نظر سكان العراق القديم بالنسبة الى الادارة والحكم • من ذلك مثلا كلمة العدل (أو الحق) وما اشتق منها من مصطلحات ادارية مهمة تتعلق بنظام الحكم المستقيم العادل • فاننا لو رجعنا الى تاريخنا القديم في وادي الرافدين لوجدنا في الاصول اللغوية الفعل السومري المركب[١١] (SI-SA) الذي من معانيه (أن يكون مستقيما ، أن يكون حقا) وفي بعض كتابات الفأل والتنجيم والوثائق القانونية القديمة يرد بمعنى (رأياً صحيحاً أو حكماً صالحاً) من ذلك ما ورد في أحد نصوص الفأل والتنجيم[١٢] :

(d. shamash purussé Mátati shu-te-shu-ru [Kummu])

« لك انت يا شمش ان تصدر حكما عادلا لكل البلدان » وصيغة الفعل هنا اكدية من الجذر الثالث المزيد (المسبب المزيد بالتاء) والمعنى

---

(١١) انظر :

Labat, R. Manuel D'èpigraphie Akkadienne, p. 91, No. 112

والكلمة السومرية التي ترد بمعنى التشاور والتداول في الرأى ايضا هي GALAG وتقابلها في اللغة الاكدية Maláku ومعناها مداولة أو مشاورة ، ومنها الاسم Milku ومعناه (رأى ، مناقشة ، مشورة)• اما اسم الفاعل منه فهو Malku (المصدر نفسه ص ١٣١ ـ رقم ٢٧٨) •

(١٢) انظر :

CAD=The Assyrian Dictionary of the Oriantal Institute of the University of Chicago, vol. 4 (E), p. 353, 362.

العام للنص هو ان الاله الشمس كان المسبب في نشر الحكم الصالح أو العادل في كل الاقطار • ويقابل الفعل السومري المذكور (Si-SA) في اللغة العربية القديمة (الاكدية) المصدر (الاصل) ashár (u) اشـــار ، eshêr(u) اشـــير ، ishêr (u) ايشـــر ، ishár (u) ايشار •

وفي حالة التأنيث[١٣] ishárt (u) ايشارتو و ishèrt (u) ايشـــرتو ومعناه نصيحة ، استقامة • هذا في المجرد على وزن (فعل) •• ويشتق اسم الفاعل منه بصيغة eshiru(m) اشيرو (م) الـذي يقـابل صيغة الصفة المشبهة باسم الفاعل في اللغة العربية وهي (من شار « أشار » ـ يشـير) شَيِّر" كما في اشتقاق الصفة المشبهة من الفعل فهم ، يفهم فهو فاهم وفهِم" وكذلك في فطن ـ يفطن فهو فَطِن" وفطِن" وحذر ـ يحـذر فهو حاذر وحذِر ـ[١٤] ، واستنادا الى الاصل القديم يظهر ان الصفة المشبهة هي نوع آخر لاسم الفاعل يمكن اشتقاقها على وزن (فعِل") •

وفي الاصل المزيد بالتضعيف أو ما يسمى أحيانا بالاصل المضعف ushshuru (m) على وزن فعّل ـ يفعّل (شوّر ـ يشوّر) فان اسم الفاعل منه يكون mushshiru(m) مُشيّر (م) « الاصل م ُ اشير (م) ـ موشير (م) ـ مُشيّر (م) » ، واشتقاقه كما نلاحظ مثل اشتقاق اسم الفاعل في العربية الحديثة من الثلاثي مضعّف العين وذلك بضم اوله وكسر ما قبل آخره « كرّم ـ يكرّم ـ مكرمٌ » على وزن مفعّل ، أو كما في شوّر ـ يشوّر فهو مشوّر بحسب القاعدة •

اما في الاصل المضعف المزيد بالتاء بعد فاء الفعـل utashshuru

---

(١٣) انظر :
C. Bezold, Babylonisch Assyrisches Glossar, p. 77,

(١٤) في اللغة العربية يعتبر اسم فاعل في صيغة المبالغة (الغلاييني / جامع الدروس العربية ج١ ص ١٩٧) •

أ'تشـــوّر عـلى وزن فتعّل يفتّعل فان اســـم الفاعـــل منـه يكـــون mutashshuru (m) مُتشّر(م) الذي يقابله في العربية الحـديثة بحسب القاعدة (من شوّر) تشوّر ـ يشتور فهو مشتوّر على وزن مفتّعل ، ولكن مثل هذه الصيغة كما يظهر غير واردة في اللغة العربية الحديثة ولعل صيغة افتعل ـ يفتعل تقابل تلك الصيغة الاكدية باستثناء تضعيف عين الفعل وهمزة الابتداء الزائدة على الاصل •

اما اشتقاق اسم الفاعل من المصدر المسبب في الاكدية (شـــفعل) shushur(u) الذي يقابل صيغة (افعل) في العربية الحديثة ، فانه يكون على وزن مُفعل (م'أفعل ـ موفعل) وهو mushishiru (m) مُشيشر (م) • وفي الاصل المسبب المزيد (شتفعل) shuteshuru (m) مُشتشر (م) فان اسم الفاعل يشتق بصيغة [١٥] mushtashiru (m) مُشتشر(م) على وزن ('مستفعل) ويقابله في العربية الاصل (استفعل) ، استشور ـ يستشور • وبحسب القاعدة يكون اسم الفاعل (مستشور) على وزن مستفعل • وعلى الوزن نفسه يرد في العربية (استشار ـ يستشير) فهو مستشير •

ومن اشـتقاقات الفعل الاكدي ايضـا الاسـم[١٦] ashshurru اشور ومعناه (محكمة ، دار القضاء ، دار العدل أو الحق) • وذلك يعني المكان الذي يتم فيه اصدار الحكم أو القرار العادل من الحـكام أو القضاة •

---

(١٥) انظر :
G. Ryckmans, Grammaire Accadienne, p. 115, VIII.

(١٦) انظر قاموس :
Muss Arnolt, Dictionary of the Ass. Language, p. 120.

نضيف الى ما تقدم انه قد وردت من الاصل الاكدي السابق صيغة مهمة لها علاقة قوية بموضوع بحثنا لانها استخدمت فقط في تمييز نوع معين من أنظمة الحكم وهو (نظام الحكم الصحيح) • وهذه الصيغة هي[١٧] (mêsharish) ميشاريش التي معناها (بطريقة حكم عادلة) وهي صيغة مبالغة مشتقة من اسم الفاعل (الصفة) (mêsharu) باضافة (ish) التي تدخل عادة على أواخر الصفات في اللغة الاكدية فتجعل منها ما يدل على الظرفية وعلى الثبوت والكثرة ايضا[١٨] • وعليه فان المعنى الحرفي لكلمة ميشاريش ، هو بعدل أو بحق وباستقامة وذلك يعني ان الحكم الصحيح في نظر سكان العراق القديم هو الذي يستند الى الحق والعدل (الى الميشاريش) فان لم يكن كذلك فهو حكم غير صحيح ومن هنا تأتي أهمية هذه الصيغة لانها تدلنا على انهم كانوا يقيمون ورزناً طيباً لمفهوم الحق والعدل في قضايا الحكم عامة •

اما الاسم المؤنث من الفعل الاكدي فهو mêsharu ميشار ، mêshêru ، مشير ، meshru ميشر ومعناه (استقامة ، عدالة ، شريعة ، مساواة) • وعلى كل حال فان الغرض من ذكر هذه الاشتقاقات هو بيان مدى أهمية كلمة العدل أو الحق في نظر المجتمع ، اذ ان تعدد الاشتقاقات وكثرتها وورودها في النصوص القديمة يدل بلا شك على كثرة استخدامها وبالتالي يعكس لنا أهميتها وقيمتها في المجتمع • ولعل ما يقابل هذا الاسم (ميشار mêsharu في مضمونه العام وفي نظرتنا نحن الى

---

(١٧) انظر : Bezold, op. cit. p. 77.

(١٨) مثال ذلك rabú ـ عظيم ، rabish ـ بعظمة • elú علو ـ elish ـ بعلو • shalamu ـ سلام shalmesh ـ بسلام •
ان هذه الطريقة تشبه طريقة اشتقاق الظرف من الصفة (احيانا) في اللغة الانكليزية وذلك باضافة (ly) الى نهايتها •

مفهوم الشورى والديمقراطية وليس في معناه اللغوي ولا في الاصل المادي الذي اشتق منه وتطور عنه ، أقول لعل ما يقابل هذا الاسم في اللغة العربية الاسم (شورى) ، وفي الاصل الاقدم (مشارة) • فقد وردت (شورى) في المعاجم العربية اسما من (شار) بمعنى استخرج الرأي [١٩] وهي في الاصل من شار العسل يشوره شورا وشيارا وشيارة ومشاراً ومشارة بمعنى استخرجه من الوقبة واجتناه[٢٠] • ويمكن أن نستدل من هذا الاصل الذي استعمل فيه الفعل على انه يشير الى التمييز بين ما يفيد الانسان من عيون العسل في خلية النحل وبين ما لا يفيد واختيار الاول واستخراجه وترك الثاني واهماله ، وفي الوقت نفسه يشير الى استخراج مادة متماثلة من خلايا متعددة وجمعها مادة واحدة ، ثم تطور هذا المدلول المادي واتسع استعماله اللغوي وأصبح يدل على ابداء الآراء وجمع ما اتفق منها برأي واحد موحد ، وبذلك حل الرأس وهو مكان عقل الانسان وتفكيره محل وقبة العسل كما حل الرأي محل العسل •

وفي القرآن الكريم ورد ما يتعلق بهذا الفعل في الآيات الآتية : «وشاورهم في الامر» [٢١] «وأمرهم شورى بينهم» [٢٢] ، « عن تراض منهما وتشاور »[٢٣] التي يتضح منها ان المعنى العام للفعل هو ابداء الرأي في مسألة من المسائل العامة التي تخص الامة أو في قضية خاصة ودراسة آراء الآخرين عنها ثم الاتفاق على رأي موحد قبل تنفيذه • وبمعنى آخر عدم الانفراد بالرأي بل بالاجماع عليه •

من جميع ما تقدم نلاحظ ان مفهوم العدل والاستقامة في الحكم كانت

---

(١٩) محيط المحيط ج١ ص ١١٣٦ (مادة شور)
(٢٠) لسان العرب ج٤ ص ٤٣٤ •
(٢١) سورة آل عمران : الآية ـ ١٥٩ •
(٢٢) سورة الشورى : الآية ـ ٣٨ •
(٢٣) سورة البقرة : الآية ـ ٢٣٣ •

له أهميته في تراثنا الفكري وكذلك (الشورى) التي عرفت في تاريخنا القديم والتي يدل محتواها اللغوي العام على الاخذ برأي الآخرين مقابل المحتوى العام لكلمة الديمقراطية ذات الاصل الاغريقي اضافة الى انها أكثر غورا من الناحية التاريخية ، لذلك فانها تمثل تراثا حضاريا قديما لبلادنا أخذ بمبادئه الاولى وبشكل ما سكان وادي الرافدين القدامى في حدود الالف الثالث قبل الميلاد ، كما أخذ به العرب في دويلاتهم القديمة في حدود الالف الاولى قبل الميلاد .

وعلى أي حال ، وسواء أكانت المبادىء الاولى للاخذ برأي الآخرين في قضايا الحكم وأهمية العدل في نظر المجتمع ، قد استنشقت نسيم الحياة في بلاد وادي الرافدين أو في جنوبي شبه الجزيرة العربية ، فانها كانت ـ هنا ـ اقدم ظهورا بالمقارنة مع تاريخ ظهورها عند الاغريق أو الرومان . وأود ان اعيد هنا ما اشرت اليه في الهامش الاول من الصفحة الاول وهو انني لا أقصد بذلك المفاهيم الحديثة للديمقراطية ولا ما وصلت اليه قبل ذلك عند الاغريق خلال القرون : السادس والخامس والرابع قبل الميلاد من تطور ، بل نقصد مبادءها الاولى التي نفهمها على انها تساوي « العدل / الحق » .

نشوء نظام الحكم الشوري (الديمقراطي) :

كثيرا ما يربط الباحثون منشأ (الديمقراطية) الاولى ببلاد الاغريق ويرون ان فكرتها بدأت مع قيام دويلات المدن الاغريقية القديمة . ولكننا في الواقع لا يمكن ان نحدد تاريخ نشوء هذا النوع من نظام الحكم الا بالرجوع الى معرفة مكان نشوء أول نظام اداري في العالم ، لان نظام الحكم يرجع في الاصل الى النظام الاداري ، ولان (الديمقراطية) في الحقيقة تمثل مرحلة جديدة من مراحل نظام الحكم تتجلى في حكم الشعب لنفسه بنفسه عن طريق من يمثلونه بمجالس خاصة . وبما ان بلدان الشرق القديم

ومنها بلاد وادي الرافدين والنيل بخاصة كانت اسبق من غيرها في نشوء الحضارة الناضجة ، لذلك فان اولى أنظمة الحكم وأول نوع للحكومة كان قد نشأ فيها . ولكي نتعرف على ذلك علينا أن نلقي نظرة سريعة على نشوء الحياة السياسية والادارية في بلاد وادي الرافدوين .

لقد مر الانسان في وادي الرافدين بمراحل عديدة ارتقى فيها سلم التطور والتقدم منذ عصور ما قبل االتاريخ حتى وصل في العصور التاريخية مرحلة الحضارة الناضجة التي تجلت في مظاهر حضارية كثيرة تناولت جوانب اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية وفنية . ففي فترة من فترات ذلك التقدم وصل في الناحيتين الادارية والسياسية الى مرحلة عرفت باسم عصور ما قبل السلالات حيث لم يتوصل فيها الى تكوين السلالات الحاكمة ، ولكننا من الناحية الحضارية نجد سكان وادي الرافدين في هذه الفترة قد توصلوا الى اختراعات مهمة مكنتهم بعد ذلك من تطوير حياتهم السياسية والانتقال الى طور جديد يعرف باسم عصور فجر السلالات . ففي عصور ما قبل السلالات وبعد الاستقرار قرب موارد المياه والتوسع في الزراعة والتحول من حياة القرية الى حياة المدينة واستعمال المعادن ، توصل الانسان الى صنع وسائط نقل مهمة كالسفن الشراعية والعربة ذات العجلة ، كذلك شيدت المعابد في مراكز المدن كما اخترعت الكتابة في أواخر هذه العصور : أي في العصر المعروف باسم عصر الوركاء (٣٥٠٠ ـ ٣٢٠٠ ق.م) . كل ذلك مكّن سكان وادي الرافدين من الدخول في عصور فجر السلالات التي تقسم ـ استنادا الى اختلاف الانتاجات الحضارية وتطورها ـ الى ثلاثة عصور هي : الاول والثاني والثالث .

تبدأ عصور فجر السلالات هذه من أواخر عصر جمدة نصر (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) الذي يعد آخر مرحلة من مراحل عصور ما قبل السلالات وتستمر حتى قيام الدولة الاكدية في حدود سنة ٢٣٥٠ قبل الميلاد

حيث انتقلت بلاد الرافدين الى طور الدولة الموحدة القوية التي تحكمها سلالة واحدة .

لقد اطلقت هذه التسمية (عصور فجر السلالات) على هذه الفترة من تاريخ العراق القديم لان البادرة الاولى للحياة السياسية ونظام الحكم عند السومريين كانت قد ظهرت اول مرة في هذا العهد ، فقد آلت مراحل التطور الحضاري الى نشوء عدد من المدن المتفرقة التي تمثل كل منها ما يشبه دولة مستقلة من الناحيتين الاقتصادية والادارية ويتوسطها معبد رئيس خصص لعبادة اله معيّن هو الاله الرئيسي للمدينة ، اضافة الى معابد اخرى ثانوية . ومن أشهر تلك المدن : اريدو (ابو شهرين) ، اور (تل المقير) ، اوروك (الوركاء) ، كيش (تل الاحيمر) نبور (نفّر) ، اوما (تل جوخة) وغيرها . وقد كان لظروف البيئة الطبيعية ، الجغرافية منها والاقتصادية اثرها الفعّال في قيام دويلات المدن (city-states) هذه ، كما كان لها اثر واضح في دفع السكان وتعاونهم وكفاحهم للقضاء على معوقات التقدم الحضاري وهي الفيضانات بالدرجة الاولى التي كانت تهددهم باستمرار[٢٤] ، ونتيجة لهذه المخاطر وغيرها كان لابد لسكان كل

---

(٢٤) لقد كان للفيضانات المتكررة في جنوبي وادى الرافدين وماتحدثه من نتائج سيئة على حياة الناس الاقتصادية اثر عظيم ومؤلم في نفوسهم يكشفه لنا احد النصوص التي تصف الفيضان :

والفيضان الوائب الذى لايقوى احد على مقاومته .
والذى يهز السماء وينزل الرجفة بالارض ،
ويلف الام وطفلها في غطاء مريع ،
ويحطم يانع الخضرة في حقول القصب ،
ويغرق الحصاد ابان نضجه ،
مياه صاعدة تؤلم العين ،
طوفان يطغي على الضفاف فيحصد اضخم الاشجار ،
عاصفة (عاتية) تمزق كل شيء ، بسرعتها المطيحة في فوضى عاتية .
(فرانكفورت واخرون / ماقبل الفلسفة ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، ص ١٤٧) .

مدينة من توحيد جهودهم وايجاد من يتولى ادارتهم وتوجيههم وحمايتهم • وكان المعبد بلا شك المركز الذي اتجهت اليه الانظار وأصبح للعاملين فيه من الكهنة ، بطبيعة مركزهم الروحي ، قدرة مكنتهم من تولي السلطة في المدينة فصاروا في الارض يمثلون الآلهة التي مقرها في السماء • ثم برز من بين الكهنة كاهن كبير تولى الحكم وأصبح ممثلا لاله المدينة الرئيسي الذي كانت المدينة بما فيها من أرض وانسان وحيوان ونبات ملكا له • وهكذا آلت سلطة الحكم في المدينة الى يد الحاكم الكاهن الذي جمع السلطتين السياسية والدينية واتخذ من المعبد مقرا له • وقد أطلق على هذا الحاكم الكاهن في اللغة السومرية اسم (Ensi) وهو يشبه كما يظهر (المكرّب) الذي كان يجمع السلطتين الدينية والزمنية في ممالك سبأ وقتبان وحضرموت في جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وكان آخر اولئك المكربين الذين حكموا في تلك الممالك قد حكم في حدود القرن السابع قبل الميلاد • (انظر ما يتعلق بهذا في نهاية البحث) •

وفي العصور التأريخية ظهر لقب جديد هو (لوكال ـ Lugal) ومعناه (الرجل العظيم) أو الملك ـ الرئيس ، وهو كما نلاحظ لقب مدني، نستنتج منه ان سلطة حاكم المدينة قد تحولت من صفتها الدينية الى صفة مدنية • ويبدو ان سلطة الملك اول الامر كانت تظهر في الاوقات والظروف التى لايتمكن فيها الحاكم الكاهن من قيادة المدينة كحدوث غزو خارجي ، ثم تزول تلك السلطة بزوال ذلك الخطر ، وبضغط من الحاكم الكاهن ممثل الاله في الارض ، وبسرور الزمن تحولت هذه الزعامة الموقتة الى زعامة دائمة • ويظهر انه حدث في بداية العصور التأريخية تنافس على السلطة بين الحكام الكهنة وبين الزعماء المدنيين الذين كانوا يظهرون في الظروف الحرجة ، وانتهى هذا التنافس بأنتصار القادة المدنيين لما امتازوا به من قوة بدنية وروح حربية اثبتت صلاحهم في قيادة المدينة والحفاظ عليها في مثل

تلك الظروف السياسية • هذا ما امتازت به دويلات المدن في وادى الرافدين في الداخل من الناحيتين الادارية والسياسية • اما من الناحية الحضارية فقد امتازت الحضارة السومرية في هذه الفترة بالنمو والتطور والازدهار في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية •

اما بالنسبة للسياسة الخارجية فان اهم ما أمتازت به دويلات المدن هو الحروب المستمرة بين تلك المدن العديدة ، ولعل من أهم عوامل قيام تلك الحروب هي الدوافع الاقتصادية المتمثلة بالرغبة في السيطرة على موارد المياه او الحصول على اراضي جديدة لسد حاجة العدد المتزايد من سكان المدينة وعدم قدرتها على استيعاب هذه الزيادة ، اضافة الى ان الدوافع الاقتصادية نفسها كانت سببا لتحقيق رغبات سكان المدن في الانتقال من دويلات مدن مبعثرة الى دولة واحدة قوية تتمكن من توفير الحاجات الاقتصادية والسيطرة على أكبر الموارد الطبيعية لخدمة جميع السكان •

ولعل اشهر هذه الحروب تلك التي قامت بين مدينة اوما ومدينة لگش وكذلك الحرب بين الوركاء وكيش التي تعتبر النصوص الكتابية المتعلقة بها المصدر الرئيس في معرفتنا بأقدم فكرة عن النظام الشورى (الديمقراطي) كانت قد نشأت في العالم القديم •

لقد تقدمت الحياة السياسية في كل مدينة من تلك المدن في عصور فجر السلالات وتطور نظام الحكم فيها ـ كما يظهر ـ من شكله الكهنوتي الى شكل مدني ديمقراطي بدائي ممثل بنشوء اول مجلس لقيادة سكان المدينة[٢٥] عرفه التاريخ يسعى الى خدمة الشعب بجماهيره العاملة في المزارع والارياف وصناعه وجنوده وكتبته وغيرهم • وكانت الحروب بين المدن قد عملت عملها في تطور نظام الحكم اذ دفعت سكان المدينة الى تفويض

---

(٢٥) Seton Lloyed, The Art of the Ancient Near East, p. 79

شؤون مدينتهم الى جماعة من الناس اعتقدوا فيهم الحكمة والقوة والقدرة على تنظيم شؤون المدينة الادارية والعسكرية الآخذة بالتوسع والتعقيد • كما عملت تلك الحروب ايضا على تقليص هذا النوع من التنظيم الشورى (الديمقراطي البدائي) ومن ثم زواله من دويلة المدينة بعد ذلك • فقد استمرت الحروب بين المدن واصبحت مشاكل الدفاع الشغل الشاغل لسكان المدينة فاضطروا تحت تأثير هذه الظروف الى تسليم سلطات المدينة وقيادتها بشكل دائم الى الملك « لوكال » الذى صار حكمه بعد ذلك مطلقا ووراثيا •

ان هذه الفترة من تاريخ جنوبي بلاد وادى الرافدين كانت بلا شك فترة انتقال حضاري ونمو سياسي حازت به دويلات المدن السومرية قصب السبق بالنسبة الى الدول القديمة الاخرى التي عاصرت تلك الفترة من التاريخ • فالمدينة السومرية كانت كما يبدو دويلة مستقلة تتولى أدارتها الداخلية وسياستها الخارجية مجموعة من شعب المدينة يمكن ان نطلق عليها اسم (المجلس الاستشارى) الذى ربما كان له دور مهم في انتخاب الرئيس الاعلى (اللوكال) لدويلة المدينة من بين اعضائه في اوقات الازمات والحروب وتحديد صلاحيته وسلطاته •

ان هذا المجلس الاستشارى الذى ربما يعتبر الاول من نوعه في تاريخ الانسان ويمثل اقدم مفهوم للنظام (الديمقراطي) عرفة البشر [٢٦] كان قد اجتمع في مدينة الوركاء[٢٧] لتقرير مصير هذه المدينة المهددة بالهجوم

---

(٢٦) انظر ماكتبه ياكبسن في (مجلة دراسات الشرق الادنى):
Thorkild Jacobsen, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, JNES (1943), II, pp. 159-172.
وكذلك ما كتبه الاستاذ طه باقر واشار اليه من مصادر في مجلة سومر م٧ (١٩٥١) ص ٢٣ وما بعدها •

(٢٧) الوركاء : وهي من اقدم المدن السومرية حيث كشفت التنقيبات فيها عن طبقات تعود الى عصور ما قبل التاريخ واخرى الى العصور التأريخية

من الخارج وذلك في عهد ملكها المشهور كَلكَامش(Gilgamesh) (٢٨) صاحب الملحمة المعروفة باسمه والذى حكم في سلالتها الاولى في حدود سنة ٣٠٠٠ ق٠م تقريبا(٢٩) ٠ لقد توسعت هذه المدينة وحاولت مدّ نفوذها

وتقع بقاياها اليوم بالقرب من مدينة السماوة ٠ اما اسمها القديم الوارد في اللغة السومرية فهو (Uruk ki ويكتب بالعلامة السومرية UNUG التى من معانيها الاكدية shubtu ومعناها (مأوى) أو « مستوطن » ولعل اسم « العراق » قد جاء من اسم « اوروك » بعد تحريف على الاسم القديم ٠

(٢٨) لقد وصف كلكامش في مقدمة هذه الملحمة بانه كان يحكم الوركاء وسكانها حكما مستبدا ، كما تذكر انه استمع الى نصائح (شيوخ) مدينته عندما بدأ بالسفر مع صديقه انكيدو الى غابة الارز في بلاد الشام ٠ نستنتج من ذلك ومن خلال اسطر الملحمة ان كلكامش قد استعمل القسوة والاضطهاد في بداية حكمه الا انه كما يظهر قد لان بعد ذلك وبخاصة بعد ظهور نده القوى انكيدو الذى تصارع معه وصارا بعد تلك المصارعة صديقين حميمين واصبح كلكامش يعتمد في ادارة شؤون المدينة وسياستها الخارجية على مشاورة مجموعة من سكان المدينة ٠ ومع علمنا بالاساطير التي حيكت حول شخصية كلكامش فاننا يمكن ان نستشف من الملحمة نفسها وبخاصة من شكاوى الناس من ظلم كلكامش واستبداده وكذلك من خلق غريمه القوى انكيدو الذى وقف في وجه قوته وجبروته ، اقول نستشف من ذلك كره الناس للاستبداد والطغيان وحبهم للعدل والحق في الحكم والادارة وبالتالي فان شخصية انكيدو لم تكن مجرد شخصية ممثلة لقساوة البوادى والبرارى حسب بل انها كانت ايضا رمزا للقوة الواقفة بوجه الظلم والاستبداد وهي بذلك تعكس لنا حكمة وعبرة ارادها سكان العراق القديم لكل حاكم مستبد وتشبيتها بان الدكتاتورية الفردية في الحكم والطغيان في الادارة لايمكن ان تستمر طويلا وان أمامها دائما قوة اخرى تقف بوجهها وتعيدها الى الحكم العادل ، لذلك نلاحظ انبثاق المجلس الاستشارى في مدينة الوركاء ٠

(٢٩) تذكر المدونات الكتابية التي جاءتنا من العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ ـ ١٥٠٠ ق ٠ م) استنادا الى اثباتات سومرية قديمة ، ان السلالات الملكية ظهرت مباشرة بعد الطوفان الذى حدث في حدود الالف الثالث قبل الميلاد ٠ وكانت مدينة كيش (تل الاحيمر ـ قرب بابل) اولى المدن التى نزلت اليها الملوكية من السماء وتكونت فيها سلالة حاكمة عرفت باسم (سلالة كيش الاولى) التي يبدو من اسماء ملوكها انهم كانوا من الساميين

وبسط سيطرتها على دويلة مدينة أخرى تقع الى الشمال منها وهي مدينة كيش، ولكن آجا (Aga) حاكم هذه المدينة احس بخطر الوركاء وادرك نواياها فأستعد لذلك واستعمل حربا نفسية ضد الوركاء بتخويف حاكمها وبعث الرعب في نفوس سكانها وثنيهم عن عزمهم ، وفي الوقت نفسه اظهار قوته وذلك بارسال وفد رسمي الى كلكامش ينذره بالخضوع والاستسلام لمدينة كيش والا فانها ستعلن الحرب وتهاجم الوركاء وتفرض سيطرتها بالقوة • فلما وصل الوفد الى الوركاء واخبر كلكامش بمطاليب آجا ، اهتزت مشاعره وصمم على الدفاع عن المدينة وخوض الحرب ضد كيش ، ولكنه لم يبلغ الوفد بالرأى الذى عزم على تنفيذه اذ ان صلاحياته في مثل هذه القضية كانت كما يبدو محددة ومقيدة بمجلس المدينة • لذلك فقد استدعى المجلس الى الاجتماع للنظر في هذا الامر المهم الذى يتعلق باستقلال المدينة وسيادتها وحرية سكانها المهددة من قبل مدينة كيش •

لقد وصلت الينا قصة هذه الحادثة التى وقعت بين المدينتين بشكل قصيدة شعرية تعود الى تاريخ متأخر عن زمن وقوعها ، ومن المحتمل أنها كتبت خلال العهد البابلي القديم استنادا الى الاخبار السومرية القديمة المتناقلة بين الاجيال لان الكتابة في زمن وقوع هذه الحادثة كانت ماتزال في مراحلها الصورية الاولى فكان من الصعوبة تدوينها في زمن وقوعها •

أن المقاطع التي وصلتنا عن تلك القصة تقول :ـ

وكان آجا آخر اولئك الملوك • ثم انتقلت الملوكية الى مدينة الوركاء حيث كونت سلالتها الاولى وكان كلكامش خامس ملوكها • ومن الجدير بالذكر ان الجداول التي سجلت اسماء الملوك والحكام وتسلسل حكمهم تذكر ايضا اسماء ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن قديمة كانت كيش والوركاء بضمنها ايضا • والمدن الباقية هي اريدو (تل ابو شهرين) وشروباك (تل فارة) وسپار (تل أبو حبة) وكلها تقع في جنوبي وادي الرافدين •

ان مبعوثي آجا بن اينميبراجيس ،
شرعوا بالسفر من كيش الى كلكامش في اورك .
فعرض السيد (كلكامش) الامر على (مجلس) شيوخ مدينته ،
وقال لهم «علينا الا نذعن لبيت (كيش) ولنحارب بالسلاح» (٣٠)
ولكن (مجلس) شيوخ المدينة المنعقد اجاب (كلكامش)
« لنذعن الى بيت (كيش) ولا نحارب بالسلاح »
(اما) كلكامش سيد (كلاب) (٣١)
الذى حقق اعمال البطولة من اجل الالهة « انا » (٣٢)
فلم يسر لكلمات شيوخ مدينته ،
ان كلكامش سيد كلاب مرة اخرى ،
عرض الامر على (مجلس) محاربي مدينته وطلب اقرار كلمته :
« لاتذعنوا لبيت كيش ولنضربه بالسلاح »
فأجاب (مجلس) المحاربين « كلكامش » (قائلين له) :
« لا نذعن الى بيت (كيش) ولنضربه بالسلاح » .
وعندئذ سر كلكامش سيد كلاب
لكلا محاربي مدينته وابتهجت روحه (٣٣) .

---

(٣٠) نلاحظ في النص ان كلمة (بيت) تتكرر امام اسم كيش ، فمن المحتمل انها كنية عن المجلس الاستشارى الحاكم في المدينة ، والذى يبدو ايضا ان هذا المجلس هو الذى قرر ارسال الوفد (مبعوثي آجا) بعد اجتماع عقده برآسة آجا .

(٣١) تتكون مدينة الوركاء من قسمين رئيسين يعرف احدهما باسم « أى ـ انّا » والاخر باسم « كلاّب » .

(٣٢) وهي آلهة الخصب والجمال عند السومريين ، وعرفت عند الاكديين باسم عشتار ، وعشتروت عند سكان الساحل الفنيقي وانتقلت صفاتها الى الاغريق متمثلة بافروديت والى الرومان باسم فينوس .

(٣٣) انظر :
S.N. Kramer, From the Tablets of Sumer, p. 26 ff.
وانظر الترجمة العربية له (من الواح سومر) للاستاذ طه باقر ص ٨١ـ٨٧ .

يمكن ان نستنتج من هذا النص ان مجلس مدينة الوركاء كان يتألف من الشيوخ (الحكماء) والشباب (المحاربين) وهذا يشير الى ان النظام الاداري والسياسي للمدينة كان يتكون من رئيس اعلى هو الملك ومن مجلس استشاري يضم صنفين من الرجال احدهما يمثل القوى العسكرية في المدينة والآخر يمثل القوى المدنية فيها • ومع ان السلطة العليا كانت بيد الرئيس الاعلى فانه في الوقت نفسه كان مقيدا برأى اعضاء المجلس المذكور ، لذلك فان كلكامش لم يستطع ان يبت في الامر الا بعد عرض القضية على المجلس • فقد عرض الامر اول مرة على الحكماء وطلب منهم التأييد والموافقة على أعلان الحرب ضد كيش وعدم الخضوع لها ، ولكن هؤلاء رفضوا الحرب ورغبوا في الخضوع لآجا والاستسلام لكيش ، ويبدو ان قرارهم لم يصدر الا بعد نقاش وجدال انتهى بقبول وتفضيل السلام في ظلام العبودية على الحرب الدفاعية ، وقد اغضب ذلك كلكامش وازعجه فاعاد عرض الموضوع على جماعة المحاربين لبرى موقفهم وكرر ما طلبه من الحكماء ، وهو اعلان الحرب وعدم الخضوع لمدينة كيش ، فاعلن هؤلاء موافقتهم على الحرب وضرب كيش بالسلاح دفاعا عن مدينتهم الوركاء وحفظا لحرية سكانها مما افرح كلكامش وبعث في نفسه السرور •

ويمكن ان نستنتج من ذلك ان القوة والسيطرة في مجلس المدينة كانت بيد المحاربين اذ ان القرار الذى اتخذوه بحمل السلاح هو الذى نفذ لانه جاء مؤيدا لرأى كلكامش في حين ان قرار الحكماء لم تكن له اهمية كبيرة ويظهر ان قراراتهم كانت غير ملزمة للملك ، ولكن عرض الامر عليهم قبل عرضه على المحاربين يشير الى المنزلة العالية التي كان يتمتع بها هؤلاء الاعضاء • اما عن الحرب بين المدينتين ونتائجها فأنها غير معروفة ولكن يبدو ان كلكامش تمكن من المحافظة على مدينته بعقد الصلح مع آجا •

وعلى اي حال فان مايهمنا هو مجلس المدينة الذى كان يضم كما يرى الاستاذ هنرى فرانكفورت[٣٤] جميع الذكور الاحرار من مواطني المدينة، ويتولى ارشادهم وتوجيههم جماعة من الرجال الحكماء ، وهذا يعني وجود مجلس واحد لا مجلسين كما يرى كريمر وياكبسن[٣٥] . ان ماذهب اليه فرانكفورت من ان جميع اعضاء المجلس كانوا من الذكور الاحرار لايستند في الواقع على اى دليل كتابي ، بل جاء ـ كما يبدو ـ قياسا على ما كان عند الاغريق ، خاصة ان معلوماتنا عن طبقات المجتمع وتقسيمها الى احرار وعبيد في هذه الفترة قليلة جدا ان لم تكن معدومة لان الكتابة كانت في بداية مراحلها الصورية الاولى . ومن المحتمل ان اعضاء المجلس كانوا من رجال المدينة الاقوياء وشبابها الاشداء ومن الحكماء من الرجال الذين اصقلتهم التجارب وحنكتهم الايام ، ولعل هؤلاء الحكماء كانوا من رجال الدين الذين هم في الواقع الحكام الاصليين ولكن الازمات والظروف الاستثنائية اضعفت سيطرتهم وقوّت نفوذ المدنيين ، لذلك فانهم لم يبعدوا عن مسرح الادارة والسياسة بشكل مفاجيء بل تدريجيا . فقد شاركوا الفئات المدنية في ادارة شؤون المدينة وكان الحكام المدنيون في الوقت نفسه يرغبون في أشتراكهم ولو بشكل رمزى ، لما لهم من تأثير روحي وسمعة طيبة في المجتمع ، وبذلك يمكن اخماد صوت معارضتهم وتأمين جانبهم ايضا . وبهذه الطريقة تم اضعاف نفوذ الكهنة تدريجيا الى ان ازيل بعد ذلك في العصور التي تلت هذه الفترة حيث زالت سلطة الحاكم الكاهن (الاينسي) وحلت محلها سلطة الملك (اللوكال) .

ونتيجة للظروف التي مرت بها دويلات المدن في جنوبي وادى الرافدين

---

(٣٤) هنرى فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى . ترجمة ميخائيل خورى (الطبعة الاولى) ص ٤٨ .

(٣٥) سومر م٧ ص ٢٣ (١٩٥١) .

وقياسا على وجود مجلس في الوركاء ، فمن المحتمل جدا وجود مجلس مماثل في مدينة كيش (ورد في النص لسابق بصيغة بيت ؟) كان قد أقر توجيه لانذار الى مدينة الوركاء وانتخب وفدا ارسله الى كلكامش ليبلغه القرار الذى اتخذه اعضاؤه بأعلان الحرب ، ومن المحتمل كذلك ، انه كان في كل دويلة مدينة من دويلات المدن السومرية مجلس مشابه لمجلس مدينة الوركاء . ولكن الاخبار والاشارات التي جاءتنا حول ذلك قليلة جدا في الوقت الحاضر ، وبالاضافة الى النص السابق لدينا اشارة عن مجلس شيوخ الوركاء وردت في ملحمة كلكامش عندما عزم السفر الى غابة الارز ، اذ دار حوار بينه وبين شيوخ اوروك ، وبعد ان قدموا له النصح قالوا له « ايها الملك كنا نطيعك في مجلس الشورى فاستمع الينا وخذ بمشورتنا ايها الملك» (٣٦) كما ان النص الذى مر ذكره مختصر للغاية ولم يمدنا الا بمعلومات قليلة ، كذلك فان مصادرنا عن هذه الفترة هي الاخرى قليلة جدا لان الكتابة كما ذكرت لم تكن قد اكتملت كي تكون صالحة لتدوين الاخبار والاحداث الكبيرة ، اضافة الى ان هذا النوع من نظام الحكم : أى مايسمى احيانا بـ (الديمقراطية البدائية) الذى ظهر في جنوبي وادى الرافدين كان سريع الزوال فقد ظهر بسرعة ثم أختفى بسرعة نتيجة للتطور السياسي الذى مرت به البلاد وحل محله نظام آخر استوجب ايداع السلطة بكاملها الى رئيس الدولة الاعلى « اللوكال » .

ولكن صدى هذا النظام استمر خلال الاجيال وانعكس في نظرة الناس الى عالم الالهة ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح عند البابليين . فقد اعتقد البابليون كما يستمد من الاساطير والقصص البابلية المستندة الى سابقتها اسومرية ـ ان الالهة في عالم السماء كانت تعيش كما يعيش البشر

---

(٣٦) طه باقر / ملحمة كلكامش ، ص ٧٩ ـ ٨٠ / الطبعة الثانية (سلسلة الثقافة الشعبية «٨») ـ وزارة الاعلام بغداد ـ ١٩٧١

على الارض وتحكم الكون وفق نظام خاص ، فمن بين تلك الالهة الكثيرة مجموعة من الالهة الكبار أو الالهة العظام اختصت بالاشراف على ادارة شئون الكون والمحافظة على العالم ، وكانت تجتمع في مجلس عام للتشاور يطلق عليه اسم (مجمع الالهة العظام) وكان الاله آنو اله السماء وكبير الالهة يرأس اجتماعات ذلك المجلس عند انعقاده • اما عدد أعضاء المجلس فكان يتألف من خمسين الهاً يضاف اليهم سبعة الهة كان لهم القول الفصل في اتخاذ القرارات الخاصة بالقضايا التي تعرض أمام المجلس • ولعل أهم واجبات مجمع الالهة العظام ، اضافة الى ادارة شئون الكون والمحافظة على وجود العالم ، النظر في مصائر البشر عند نهاية كل عام حيث يجتمع أعضاء المجلس لتقرير مصائر الناس للعام القابل • ومن واجباته ايضا محاكمة أي اله يرتكب عملا مخلا بالاخلاق • اما كيفية عرض القضايا وطريقة اتخاذ القرارات النهائية فكانت تتم بالتشاور وابداء الراي والمناقشة ثم الاتفاق بالاجماع • فيعرض رئيس المجلس اولا القضية ثم تناقش من الاعضاء وبعد التشاور وابداء الآراء المختلفة ، المؤيدة منها والمعارضة ، يصدر الحكم أو القرار النهائي ثم يعلن رئيس المجلس ذلك القرار بقوله : (الحكم : كلمة مجمع الالهة مشيئة انو وانليل ••)[٣٧] وكان الاله انليل اله الهواء والعواصف هو المسؤول عن تنفيذ القرارات التي يصدرها مجمع الالهة العظام •

وعلى كل حال فان معلوماتنا عن مجلس مدينة الوركاء ما تزال قليلة، فاننا لانعرف مثلا عدد أعضاء المجلس ومكان اجتماعاتهم وكيفية انتخابهم، كذلك لا نعرف كيفية الحصول على القرار النهائي وطريقة التصويت وابداء الرأي • ومع ذلك فمن المحتمل انهم كانوا يجتمعون في مكان ما

---

(٣٧) فرانكفورت وآخرون : ماقبل الفلسفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، ص ١٥٩ •

أو ساحة ما قرب معبد المدينة الرئيسي باعتباره مركز المدينة ، ويظهر من سياق النص السابق ان أعضاء المجلس من الحكماء والمحاربين كانوا يجتمعون في مكان واحد ولكن أعضاء كل مجلس كانوا يجلسون في جانب من المكان المعد للاجتماع ويقف الملك امام أعضاء المجلس حيث يبدأ كلامه عارضا رأيه على الحكماء وبعد أن يتفق معهم أو لا يتفق يتجه الى المحاربين. وربما كان لكل من الحكماء والمحاربين رئيس يتولى اجابة الملك نيابة عنهم .

ويبدو ان وقوف الملك الى جانب احدى الفئتين أو وقوف احداهما الى جانب الملك كان له أهمية كبيرة في اتخاذ القرار النهائي العام ، فتأييد جماعة المحاربين لرأي كلكامش في اعلان الحرب ضد كيش أدى الى أن يكون القرار النهائي العام هو اعلان الحرب ، ولو عارض هؤلاء رأي كلكامش كما عارضه الحكماء لربما كانت النتيجة بالنسبة الى كلكامش عكس الذي أراد ولاصبحت اوروك في ظل عبودية مدينة كيش .

منشأ الديمقراطية في كل من بلاد اليونان وبلاد الرافدين :

لو تتبعنا تاريخ نشوء الاسس الاولى للنظام الديمقراطي عند الاغريق في بلاد اليونان أو عند الرومان في روما لوجدنا انه قد ظهر في فترة تأريخية متأخرة بالنسبة لتلك التي ظهر فيها في وادي الرافدين . فتأريخ ظهور دويلات المدن الاغريقية مثلا لم يتجاوز حدود القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، في حين ان عصر دويلات المدن السومرية في وادي الرافدين يرجع الى الالف الثالث قبل الميلاد . اما بالنسبة الى طريقة ادارة المدن الاغريقية فانها كانت تتركز بيد رئيس القبيلة الذي كان يدعو الذكور الاحرار من أبناء قبيلته أو مدينته الى اجتماع عام في الحالات التي تستوجب ذلك الاجتماع ويعرض عليهم مقترحاته التي قد تلاقي القبول أو الرفض ، وقد كان هذا الاجتماع يمثل العنصر الديمقراطي الوحيد في ذلك المجتمع الذي

كان حكامه يمثلون طبقة ارستقراطية اقطاعية[٣٨] ، اما عند الرومان فان مدينة روما نفسها لم تظهر الى الوجود قبل الالف الاولى قبل الميلاد ، بل ان تاريخ بنائها يحدد بحسب الروايات الرومانية بسنة ٧٥٣ قبل الميلاد[٣٩] ، كما ان نظامها الديمقراطي الاول المتمثل بمجلس استقر على أن يضم ثلاثمائة عضو من شيوخ القبائل البارزين[٤٠] كان قد ظهر في حدود هذا التاريخ ايضا ، وبعد ذلك تطور النظام الديمقراطي في روما خلال القرون : السادس والخامس والرابع قبل الميلاد حيث ظهر مجلس الشيوخ الذي كان يمثل الارستقراطيين ومجلس الاحرار الذي كان يمثل العامة • ثم بدأ الصراع بين المجلسين فكان صراعا بين الارستقراطية والديمقراطية[٤١] ، أي صراعا بين الاقلية المتنفذة التي تريد الابقاء على امتيازاتها وبين الطبقة العامة التي تمثل الاكثرية وتريد استخلاص حقوقها •

وعلى كل حال فالذي يهمنا ليس تطور النظام الديمقراطي عند الاغريق أو الرومان ولا المرحلة الناضجة التي وصل اليها بل الاصل الذي نشأ منه ومقارنة هذا الاصل بذاك الذي ظهر في وادي الرافدين •

ان المجالس التي نشأت عند الاغريق كانت تمثل كما يقول هوميروس

---

(٣٨) ول ديورانت / قصة الحضارة (حياة اليونان / ترجمة محمد بدران / ج٢ مجلد ٢ (٦) ص ٧٥-٧٦ ، ١٠٢/ الطبعة الثانية (القاهرة - ١٩٥٩) • وانظر ايضا :
اج • جي • ولز / معالم تاريخ الانسانية / ترجمة عبدالعزيز جاويد / م ٢ ، ص ٣١٩ / الطبعة الثانية (القاهرة - ١٩٥٩) •

(٣٩) سامي اليافي / الحضارة الانسانية ص ١١ (القاهرة - ١٩٦٢)• وانظر ايضا :
ديورانت / المصدر السابق ج ٩ ص ٢٦-٢٧ / الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٣) •

(٤٠) المصدر نفسه ص ٤٧ •

(٤١) اج • جي • ولز / المصدر السابق ص ٥٠٧ - ٥٠٨ ، ٥٥١ •

الطبقة الارستقراطية في المدينة فهي تتألف من الشيوخ ورؤساء القبائل ممثلين للطبقة الارستقراطية الحاكمة ومن بعض أفراد الشعب الـذين يختارون وفق شروط معينة وليس لآرائهم اثر يذكر(٤٢) .

اما في الوركاء فاننا وان كنا لا نعلم مميزات أعضاء المجلس وصفاتهم بشكل مؤكد ، نستطيع أن نستنتج انهم كانوا من سكان المدينة عامة . فالمحاربين كانوا من الشباب الذين ربما كان اختيارهم يتم بطريقة خاصة . اما الشيوخ فان الصفة المميزة لعضويتهم كانت التقدم في السن والحكمة والدراية . ولعل خير من تجتمع فيه مثل هذه الصفات هم اولئك الكهنة الذين كرسوا حياتهم في خدمة الآلهة فانتقلت وظيفتهم من سدنة للمعابد واداريين في المدينة الى أعضاء في المجلس . وعليه فان اختيار أعضاء مجلس مدينة الوركاء لم يكن على أساس طبقي بل على أساس عضلي وعقلـي خاصة ان مفهوم الطبقات لم يكن قد ظهر بشكل بارز ، اضافة الى ان المجتمع كله كان ملكا لاله المدينة وتعاون أفراد المجتمع جميعا على الدفاع عنها معناه الدفاع عن منزلة ذلك الاله وسمعته ، ويمكن ان نستنتج من ذلك ان أعضاء المجلس كانوا في الاكثر من القوى العاملة في المدينة وضواحيها من صناع وزراع الى كتبة ورجال دين وجنود وغيرهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان ظهور زعيم للقبيلة في دويلات المدن الاغريقية في ظروف خاصة كان يشبه ظهور القائد المدني في بلاد الرافدين ، فقد ظهر عند الاغريق مجلس عام ينعقد في سوق المدينة عند حدوث ما يستوجب ذلك الاجتماع وخاصة في الظروف غير الطبيعية ، وفي هذا الاجتماع يتم انتخاب أحد شيوخ المدينة البارزين رئيسا لها(٤٣) . اما في دويلات مدن

---

(٤٢) **محمود الشرقاوى / الديمقراطية عند العرب ، ص ٧ .**

(٤٣) محمد حامد الجمل / اضواء على الديمقراطية العربية ص ١٧ . وانظر ايضا : ول ديورانت / قصـة الحضـارة ج١ مجلد ٢ (٦) ص ١٠٣ .

وادي الرافدين فان ظهور (اللوكال) لم يكن باعتباره شيخا للقبيلة بل لانه أحد أعضاء المجتمع امتاز عن بقية الاعضاء بميزات معينة منها في الاخص العظمة المتمثلة بالشجاعة والقوة والاقدام كما يستدل على ذلك من الاسم السومري LU - GAL أي الرجل العظيم الذي صار بعد ذلك ملكا للمدينة • وهنا نجد بلاد وادي الرافدين قد تركت حرية الوصول لقيادة المجتمع الى كل فرد من أبنائه له من المؤهلات الخاصة والمقدرة الشخصية ما يمكّنه من أن يكون قائدا لشعب المدينة وزعيما لها ، في حين ان المميزات الخاصة التي كانت تمكن الشخص في دويلات المدن الاغريقية من الوصول الى زعامة المدينة هي القبيلة وقوتها فكلما كانت القبيلة كثيرة العدد وقوية الجانب اثرت في اختيار الشخص من بين رجالها ليكون زعيما للمدينة ، وهذا قد يؤدي الى مجيء من لا يستحق أن يكون زعيما لها من الناحية العقلية او من ناحية الكفاءة والمقدرة الشخصية • من ذلك نلاحظ ان بلاد وادي الرافدين كانت أرفع مستوى من بلاد الاغريق في طريقة اختيار الشخص القائد • هذا مع العلم ان ما يعرف بالحكام الطغاة الذين أصبحوا ملوكا في دويلات المدن الاغريقية كان قد ظهر في حدود القرن السابع قبل الميلاد(٤٤) •

اما عند الرومان فان السلطة في مدينة روما كانت مشابهة لتلك التي كانت في الوركاء ، فالملك في روما يعتبر الرئيس الاعلى للمدينة ، ويشاركه في تسيير الامور مجلس للشيوخ (senatus- سناتو) الذي كان عمله استشاريا وقراراته غير ملزمة للملك ، ومجلس للشعب (Comitiacuriats) يضم الشباب القادر على حمل السلاح • وقد انتهى حكم الملوك في روما وحل محله النظام الجمهوري في حدود سنة

---

(٤٤) اج • جي • ولز / معالم تاريخ الانسانية ص ٣٢٧ •

٥١٠ قبل الميلاد[٤٥] . فلو قارنا عمل هذين المجلسين بعمل مجلس الوركاء لرأينا تشابها كبيرا بينهما ، فعمل مجلس الشيوخ في روما كان كما يبدو عملا استشاريا لا يلتزم الملك بقراراته وكذلك كان عمل الحكماء « الشيوخ » في مجلس الوركاء ، اما بالنسبة الى مجلس الشعب في روما وجماعة المحاربين « الشباب » في مجلس الوركاء فان صفات أعضائهما وعمل كل منهما كان مشابها للآخر ايضا اذ ان كل منهما يمثل الشباب القوي المحارب كما ان السلطة الحقيقية كانت بيد هذا المجلس في كل من الوركاء وروما .

مما تقدم نلاحظ مدى السبق الحضاري والتقدم الاداري والسياسي الذي أحرزته بلاد وادي الرافدين بالنسبة الى حضارة الاغريق والرومان في فكرة خلق الاسس الاولى للحكم الديمقراطي (الشورى) المتمثلة بوجود مجلس للشعب أو مجلس وطني أو (مجلس للامة) يعتمد في اتخاذ قراراته على التشاور والمناقشة ويستند الى الرأي العام بصورة غير مباشرة . ولو قارنا بين ما وصلت اليه الديمقراطية عند الاغريق والرومان خلال القرون : السادس والخامس والرابع قبل الميلاد من تقدم انتهى الى قيام مجلس للشيوخ وآخر للشعب وبين ما قام في وادي الرافدين من حكم شوري متمثل في مجلس حكماء الوركاء ومحاربيها في الالف الثالثة قبل الميلاد ، لو قارنا بين الاثنين لوجدنا ان بلاد وادي الرافدين قد سبقت الاغريق والرومان في هذا الميدان بما يزيد على الالفي سنة تقريبا .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا انه كانت قد نشأت في تركية في أواخر الالف الثالثة قبل الميلاد مملكة آشورية صغيرة كان نظام الحكم فيها مشابها لذلك الذي كان في روما[٤٦] وربما كان لنظام هذه المملكة اثره فيما نشأ

---

(٤٥) محمد حامد الجمل / المصدر السابق ص ١٨ .

(٤٦) طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات ج ١ ص ٣٥٩ .

عند الرومان لان آسيا الصغرى كانت واحدا من الطرق التي مشت عليها حضارة وادي الرافدين الى جزر بحر ايجه وبلاد اليونان • ولعل ما نشأ في كل من اثينا وروما من نظام ديمقراطي كان تطورا لما كان في بلاد الرافدين ، فقد تمكنت حضارة الاغريق والرومان كما يبدو من تخطي المراحل التطويرية للحضارة التي مرت بها الاقطار الاخرى وخاصة وادي الرافدين والنيل • وبمعنى آخر ان الاغريق ومن بعدهم الرومان كانوا عند ظهورهم محاطين بحضارات زاهية امدتهم بمقومات حضارية كثيرة ، لذلك فان الحضارة الاغريقية والرومانية لم تبدأ من نقطة الابتداء (نقطة الصفر) بل من نقطة أعلى من ذلك ومن ثم طوروا أنظمة حكمهم نحو نوع من الديمقراطية المتقدمة • اما بالنسبة للنظام الديمقراطي في وادي الرافدين فانه لم يستطع البقاء أو الاستمرار والتطور لان الظروف السياسية والاقتصادية حالت دون ذلك ، فرغبة سكان دويلات المدن بالتحول الى دولة واحدة ، كان يستوجب التركيز على القوة العسكرية لانها القادرة على تحقيق تلك الآمال وفي الوقت نفسه انها القادرة على تأمين متطلبات الحياة الاقتصادية للسكان ، ونتيجة لذلك فقد تلاشت تلك المجالس في دويلات المدن • وبعد ان تمت وحدة الدويلات وساد الاستقرار بدأ القانون يعمل عمله وأخذت الشرائع تؤتي اكلها ثم ظهرت مجالس قضائية وتشريعية حلت محل تلك المجالس السياسية •

نظام الحكم عند العرب قبل الاسلام :

مارس العرب خلال تاريخهم القديم قبل الاسلام أنظمة حكم متشابهة التقت جميعها في خط واحد يمثل نوعا من الحكم الشورى (الديمقراطي) ، وربما كان لاخبار هذا النظام وصداه أثر في ديمقراطية بلاد الرومان ايضا •

لقد انشأ العرب في جنوبي شبه الجزيرة العربية منذ الالف الاولى قبل الميلاد عددا من الممالك ، كان أشهرها في معين وسبأ وقتبان • فمي معين

ظهرت الاسر الحاكمة في حدود سنة (١١١٠) قبل الميلاد[٤٧] ، وكان على رأس الدولة المعينية وفي مقر حكمها ملك حددت صلاحياته بمجلس استشاري • اما في المدن الاخرى التابعة فان ادارتها كانت تتكون من رئيس ينتخب لمدة سنة واحدة ويساعده في تسيير الامور العامة مجلس من المشايخ[٤٨] • من ذلك يظهر ان نظام الحكم في معين كان ملكيا شوريا (ديمقراطيا) يستند الى الرأي العام المتمثل بمجلس المدينة الاستشاري وبمجالس المشايخ في المدن التابعة • ولا شك ان اصدار قرارات تلك المجالس كان يعتمد على ابداء الرأي والتشاور فيما بين الاعضاء ومن ثم الاتفاق التام عليها واصدارها • اما في سبأ فان نظام الحكم فيها كان شوريا (ديمقراطيا) ايضا اساسه الرأي والتشاور ، واصدق مصدر على ذلك الآيات القرآنية الكريمة الواردة في سورة النمل والتي تشير الى الحادثة التي وقعت بين ملكة سبأ وبين النبي سليمان (ع) الذي ارسل اليها بكتاب يأمرها فيه وقومها بان لا يعلوا وأن يأتوه مسلمين ••• : « قالت يا أيها الملؤا اني القي اليَّ كتاب كريم (٢٩) انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) الاّ تعلوا عليَّ واتوني مسلمين (٣١) قالت يا أيها الملؤا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون (٣٢) قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » • نستنتج من ذلك ان نظام الحكم في سبأ كان ملكيا مقيدا بمجلس للشورى تمثله كلمة (الملوءا) التي معناها جماعة القوم كما تعني التشاور ايضا[٤٩] فالملوءا اذن تعني المتشاورين أو المتعاونين • يستدل من ذلك على وجود مجلس يضم

---

(٤٧) صالح احمد العلي / محاضرات في تاريخ العرب ص ١٧ •
(٤٨) المصدر نفسه ص ١٨ •
(٤٩) صحاح الجواهري / تحقيق احمد عبدالغفور عطار ص ٧٢ • ، وانظر ايضا : الزمخشري / اساس البلاغة ص ٦١١ •

جماعة من الرجال وبما كانوا من اشراف القوم كانت الملكة تشاورهم وتستنير برأيهم في القضايا العامة التي تخص المجتمع وبخاصة منها مايمس كيان المجتمع ووجوده • ويبدو ان رجال هذا المجلس كانوا من المحاربين كما ان ثقتهم بملكتهم كانت قوية بحيث تركوا اليها اتخاذ القرار النهائي وفي الوقت نفسه اظهروا بانهم على استعداد ان هي قررت الحرب • ومما تجدر الاشارة اليه ان ملكة سبأ (محتمل انها بلقيس) كانت قد حكمت في حدود سنة ٩٦٨ قبل الميلاد (٥٠) •

اما نظام الحكم عند القتبانيين الذين يعود تاريخهم الى الالف الاولى قبل الميلاد تقريبا فقد كان يتكون من مجلس للقبائل ، يمثل فيه اصحاب الاراضي الزراعية واصحاب الاملاك ويعقد جلساته مرتين في العام ، اما عمله فقد كان ، كما يبدو ، طرح الموضوعات الهامة والموافقة عليها في الجلسة الاولى ثم المصادقة عليها في الجلسة الثانية كي تكون قوانين جاهزة للتنفيذ •

والى جنب هذا المجلس يوجد مجلس آخر تشريعي كان عمله كما يظهر المصادقة على القوانين لتصبح نافذة المفعول • اما على رأس هذا النظام فقد كان الملك الذي يمثل في الوقت نفسه رأس الدولة الاعلى (٥١) •

وهذا يشير الى ان الجهاز الحكومي والسلطة الادارية والسياسية الرئيسة عند القتبانيين كانت تتكون من ملك حددت سلطاته بمجلسين يمثلان قطاعات شعبية لها وزنها الاجتماعي واهميتها الاقتصادية في حياة القبيلة والدولة •

هذا مع العلم ان النظام العام قبل ان يصير ملكيا كان يشبه ذلك الذي نشأ في وادي الرافدين في عصور فجر السلالات ، وهو نظام الحكام الكهنة

---

(٥٠) ديتلف نيلسن وفرتز هومل وآخرون / التاريخ العربي القديم/ ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ص ٣٦٤ ، (القاهرة ـ ١٩٥٨)•

(٥١) المصدر نفسه / ص ١٢٤ ـ ١٣٣ •

(الاينسي) الذين جمعوا السلطتين السياسية والدينية ، فقد لقب الحاكم في جنوبي شبه الجزيرة العربية وخاصة في سبأ بأسم (مكـرّب) أي مقرب ، وهو لقب ديني معناه امير الكهنوت أو(امير القربان) (٥٢) ،وبمعنى آخر انه في الاصل الشخص الـذي كان يتولى عملية تقريب القرابين الى المعبودات •

ويبدو ان اسم المكرب مشتق من اصل عربي (سامي) قديم ورد في اللغة الاكدية ولكن لم استطع العثور على معنى يتفق مع مانريد في قواميس اللغة العربية اذ يظهر انه اختفى باختفاء لقب (المكرّب) ووظيفته، ولم تعد بعد ذلك حاجة لاستعماله • اما الاصل الاكدي فهو (Karábu) الذي من معانيه : صلى ـ يصلي ، ومن اشتقاقاته مايفيد (الدعاء والتحيـة والصلاة)وقياسا على اشتقاق الاسم في اللغة الاكدية من الفعل الثلاثي فأن الاسم من الفعل المجرد (Karábu) يكون (Karibum) • امـا (Mukarribum) فانه اسم فاعل في صيغة المبالغة معناه (كثير الصلاة او كثير الدعاء) • وهذا يوضح لنا الاصل الذي جاء منه اسم (المكرّب)•

اضافة الى ذلك وردت صيغة ikrubu ومعناه(هو الحاكم)(٥٣)، ونستدل من ذلك ان الوظيفة الاصلية للمكرب كانت الصلاة للالهة والدعاء للبشر امامها ثم اضيف الى تلك الوظيفة الدينية نتيجة لتطور المجتمع وتقدمه وظيفة مدنية او سياسية وبذلك صار المكرّب يجمع الوظيفتين في آن واحد•

هذا مـع العلم ان حكم المكربين قد عاش في جنوبي شبـه الجزيرة العربية مابين القرن العاشر والقرن السابع قبل الميلاد •

---

(٥٢) جواد علي / تاريخ العرب قبل الاسلام ج٨ ص ١٠ ، ٢٣ •

(٥٣) انظر :

Von Soden, Akkadisches Handworter Buch, No. 5, p. 445 f. (1965)

Labat. R. Op. cit., No. 26, 152, 438.

أضافة الى ماتقدم يمكن ان نستنتج ايضا ان المجتمع العربي في جنوبي شبه الجزيرة العربية كان مجتمعا قبلياًعلى رأس ادارته حكام كهنة ثم ملوك يستندون في تسير الامور العامة الى الرأي العام المتمثل في مجالس شورية خاصة ، ولعل ما يدلنا على الاهتمام بالرأي العام هو اجتماع المجلس العام للقبائل فى قتبان مرتين فى السنة ، فربما يشير ذلك الى ان الفترة بين الاجتماع الاول والاجتماع الثانى كانت لغرض معرفة الرأى العام فى القضايا المطروحة فى الجلسة الاولى قبل الموافقة عليها فى الجلسة الثانية •

ان هذا النوع من نظام الحكم يمثل بلا شك طريقة من طرق الحكم الشورى (الديمقراطى) الذى اخذ به العرب قبل الاسلام فى جزء من وطنهم وهو جنوبى شبه الجزيرة العربية •

ختاما للبحث واستنادا الى ما تقدم يمكن القول انه من الضرورى والمفيد الرجوع الى تراثنا الحضارى القديم الزاخر بالافكار والمبادى والقيم الانسانية القيمة سواء اكان ذلك فى عصوره القديمة ام فى عصوره العربية الاسلامية ووضعه فى المستوى الذى يستحقه من حياتنا الحاضر التى من المفيد ان نشدها اليه لانه تراث انساني قيّم اسهم في رقى وتقدم الحضارة الانسانية القديمة منها والحديثة ، اضافة الى انه يمثل قاعدة تاريخية انسانية صلدة تمدنا بطاقات دافعة وآمال دافقة في قدرتنا على الاخذ والعطاء والتطور في المجالات الحضارية الحديثة المختلفة •